المنظومة
ALMANDUMAH

العنوان:	المرأة في الأندلس : و نموذج من طوق الحمامة
المصدر:	دراسات عربية وإسلامية
الناشر:	جامعة القاهرة - مركز اللغات الاجنبية والترجمة التخصصية
المؤلف الرئيسي:	مكى، الطاهر أحمد
المجلد/العدد:	ج 27
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2008
الصفحات:	149 - 175
رقم MD:	145841
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
اللغة:	Arabic
قواعد المعلومات:	IslamicInfo, AraBase
مواضيع:	الدولة الأموية، الأندلس، المرأة المسلمة، حقوق المرأة، الأدب العربي، المستشرقون، ابن حزم، علي بن أحمد بن سعيد، 384-456 هـ . ، كتاب طوق الحمامة، الفتوحات الإسلامية، الحب، العشق، عمل المرأة، الزواج، العشاق
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/145841

© 2024 المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو المنظومة.

للإستشهاد بهذا البحث قم بنسخ البيانات التالية حسب إسلوب الإستشهاد المطلوب:

إسلوب APA

مكى، الطاهر أحمد. (2008). المرأة في الأندلس: و نموذج من طوق الحمامة.دراسات عربية وإسلامية، ج 27، 149 - 175. مسترجع من http://search.mandumah.com/Record/145841

إسلوب MLA

مكى، الطاهر أحمد. "المرأة في الأندلس: و نموذج من طوق الحمامة."دراسات عربية وإسلاميةج 27 (2008): 149 - 175. مسترجع من http://search.mandumah.com/Record/145841

© 2024 المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو المنظومة.

المرأة فى الأندلس
ونموذج من طوق الحمامة

أ.د. الطاهر مكى (*)

مع قلة الوثائق وغيبة الشواهد تختلف الآراء حول المرأة الأندلسية اختلافاً بيناً، وفى دوائر المستشرقين بخاصة ، لأن أبحاث الدارسين العرب فى مجال الأندلسيات لما تزل محدودة ، وقليل جداً بينها من يقول شيئاً نافعاً أو يضيف إلى ما نعرف جديداً ، لأن الاهتمام بالأندلس ، تاريخه وحضارته وأدبه ، جاء متأخراً ، والقائمون عليها الآن ، وهم قلة ، أمامهم سنوات مضنية من العمل ، لكى يزيحوا عن هذه المنطقة من تراثنا غبار الإهمال ، ويعبدوا أمام الأجيال القادمة طرائق البحث ، من نشر المخطوطات ، وتوفير المصادر ، ودراسة اللغة الأسبانية ، وكل تخصص فى مجال الأندلسيات دون التمكن منها ، ثماره عقيمة ، وحظه من النجاح محدود .

حاول المستشرقون إذن أن يدرسوا وضع المرأة الأندلسية ، وبذلوا جهوداً طيبة ، وقد أخفق بعضهم ، فى جانب من آرائه ، قليل أو كثير ، لأن عقيدة التعالى على العرب ، أو البغض للإسلام ، كانت تحكم أبحاثه . وضل الطريق آخرون لأن دلالات النصوص البعيدة ، والتى تعتمد على تذوق اللغة ، وإدراك الفروق الدقيقة بين معانى الألفاظ المختلفة ، كانت تفلت منهم ، وهو شئ طبيعى ؛ فأدى بهم ذلك إلى أحكام خاطئة وجائرة أحياناً ، ولكنهم فى كل الأحوال أسدوا إلى هذا التراث يداً ، يستحقون عليها أن نقول لهم شكراً ، ومن عمل وأخطأ ، خير ممن لا يعمل شيئاً على الإطلاق .

(*) أستاذ الأدب الأندلسى والأدب الحديث بكلية دار العلوم ، جامعة القاهرة ، وعضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

ليس فى نيتى ، ولا بإمكانى أيضاً ، أن أتتبع آراءهم جميعاً ، لكنى سوف أحاول أن أعطى صورة لهذه الاتجاهات المختلفة ، فى خطوطها العامة ، موجزة نعم ، ولكنها كافية لكى نعرف كيف يفكرون فى هذا الجانب ، وأين نقف منهم .

آراء المستشرقين :

كان المستشرق الألمانى ، البارون فون شاك Von Schack أول من تحدث فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر فى كتابه : شعر العرب وفنهم فى إسبانيا وصقلية Possie und Kunst der Araber in Spanien und sicilien وصدرت الطبعة الأولى منه فى برلين عام 1865 م ، عن المرأة الأندلسية ، وجاء حديثه عنها كمقدمه للفصل الرابع من الكتاب ، وأوقفه على دراسة شعر الغزل فى الأندلس ، وانتهى فيها إلى "أن وضع المرأة فى إسبانيا كان أكثر تحرراً عما كان عليه فى بقية الشعوب الإسلامية الأخرى ، فأسهمت بجهدها فى كل ألوان الثقافة المعروفة على أياما ، وليس بقليل عدد أولئك اللاتى بلغن شهرة واسعة لدورهن فى مجال العلم ، أو مزاحمتهن الرجال فى قرض الشعر . وفى ظل هذه الحضارة الراقية بلغن فى إسبانيا احتراماً لم تعرفه المرأة أبداً فى المشرق الإسلامى . فعلى حين أن الحب هناك ، باستثناء حالات نادرة ، ينهض على الشهوة ، كان هنا ينطلق من تعاطف روحى عميق ، وعلاقة نبيلة بين المرأة والرجل ، وكثيراً ما كانت عبقرية المرأة وثقافتها أشد جاذبية للعاشقين من جمال جسمها وسحر مفاتنها ، وعادة يكون الميل المشترك إلى الشعر أو الموسيقى الخيط الرفيع الذى يربط بين قلبين عاشقين ".

ثم جاء المستشرق الأسبانى خوليان ريبيرا (1858- 1934م) فعرض لجانب من قضية المرأة ، فى بحثه الذى ألقاه فى المجمع الملكى الأسبانى عند اختياره عضواً فيه عام 1912م ، وكان عن "ديوان ابن قزمان" : ولم تكن المرأة

موضع دراسته بدءاً ، وإنما عرض لها عند حديثه عن اللغة التى كـان يتكلمهـا سكان الأندلس ، وهو أول من اكتشف بين الباحثين المحدثين أن الأندلسيين كانوا يتكلمون لغتين عامتين مختلفتين معاً، العربية والرومانثية ، وإذا نحينا المبالغـات التى شابت بحثه ، وكان فيه رائداً ، وتحكم حماسـة مخلـصة وصـادقة ، فـإن النتائج التى انتهى إليها كانت فتحاً جديداً فى عالم الأندلسيات .

تحث ريبيرا عن دور المرأة البالغ الأهمية فى أسبنة المسلمين القـادمين من المشرق أو من شمال أفريقية ، وفى إشاعة اللغة الرومانثية والإبقاء عليها ، والحفاظ على الخصائص البيولوجية الأسبانية ، والتقاليد التى كان عليها الأسبان قبل الفتح الإسلامى بعامة ، وفى مجال الحياة العاطفيـة والأسـرية علـى نحـو خاص.

وقد تساءل ريبيرا عن السلالة التى ينتمى إليها الأمـويين فـى ضـوء نظريته هذه ، فدرس فى أناة وثائق بيع الرقيق ، ووجد أن الغالبية العظمى بينهن من شمال أسبانيا ، من غاليسية ، أو جليقية فـى المـصادر القديمـة ، أو مـن مقاطعة ليون ، أو من أشتورياس، أو من قطلونيـة ، وانتهـى إلـى أن هـؤلاء الأمويين كانوا ، طبقاً لنظريته السابقة ، أسـبانيين دمـاً، ولـم لا ؟! ألـم يكـن عبدالرحمن الناصر أحمد الوجه ، أشقر الشعر ، أزرق العينين ؟

وهى دارسة فيها الكثير من المتعة، ومن رياضة الذهن ، ولكنها تُبـسط الأمور بأكثر مما يجب ، ومما تحتمل ، وتجعل من القضايا الاجتماعية المعقـدة المتشابكة شيئاً ذهنياً مجرداً ، كما لو كانت لعبة شطرنج أو تمارين هندسية . من الذى قال – مثلاً – أن الأبن يأتى إلى الدنيا حاملاً من خصائص أمه وأبيه نـسبة متساوية ، 50% لكل منهما ؟ . ليس هناك قاعدة علميـة واحـدة تحكـم هـذه الظاهرة ، فيما أعلم ، والذى أعرفه أن الطفل يأخذ من أبيه ومـن أمـه بنـسب تتفاوت ، أحياناً ، إلى حد كبير ، لصالح الأب أو لصالح الأم ، وأحياناً تعود بهـذه الخصائص ، من لون العينين ، وطول القامة ، وشكل الوجه ، وأشـياء أخـرى جسمية أو نفسية ، إلى أفراد سبقوا فى نسبه الأموى أو الأبوى ، دون أن يكـون

فى أبيه أو أمه شئ مما فيه ، ونعرف أن المناخ الاجتماعى بجوانبه المختلفة ، والظروف الطبيعية فى مظاهرها المتعددة ، تلعب دوراً هاماً فى صقل هذه الخصائص وتطويرها ، حتى البيولوجية منها.

نحن إذن مع ريبيرا فى الدور الذى لعبته المرأة الأسبانية ، بوصفها هذا، فى مجال الحياة الأندلسية ، وكان واضحاً ومقدراً ، لكننا لا نتابعه فى لعبة الأرقام التى اعتمد عليها ، وأدارها فى مهارة ، وسذاجة فى الوقت نفسه ، لأن العلم والشواهد التاريخية ، والظواهر النفسية والاجتماعية ، تقف فى الجانب المقابل منها.

أما سانتشيث البرنس فيصدر فى دراساته لتاريخ الأندلس ، وهى كثيرة وعميقة ومتنوعة ، عن روح قومى متشدد ، يضل معه أحياناً جادة الصواب ، ولست أريد أن أعرض لكل ما قال ، ودراساته تقوم على أن المسلمين جاءوا الأندلس خلو من كل شئ ، وأن الذين كانوا يقيمون على بطحاء شبه الجزيرة الإيبيرية قبل مجئ المسلمين ، ورآهم أرقى ثقافة وعادات وتقاليد ، هم الذين أعطوا الصورة الوضيئة لحضارتها المزهرة والراقية ، وبحسبى أن أشير إلى كتاب محدود الحجم بين دراساته ، نافع ومفيد ، وزحمه بمصادر لا حد لها تتجاوز مادة الكتاب نفسها ، عن "إسلام أسبانيا والغرب El Islam de Espanay el Occidente " ونشره تحت صورة مختلفة ، وآخر طبعه له فيها أعلم صدرت فى مدريد عام 1947 ، فى السلسة الثقافية الشهيرة : "مجموعة أو ستزال" التى تصدرها دار "إسباسا كالبى" ؛ وكان قبلها محظوراً على الناشرين فى أسبانيا ، أن يطبعوا أو ينشروا له شيئاً ، لأنه جمهورى ، وكان رئيس حكومة الجمهوريين فى المنفى .

تدور مادة الكتاب كلها عن أسبانيا ما قبل الإسلام ، وما أسهمت به أسبانيا الإسلامية فى مجال الثقافة والمعمار والموسيقى فى إنهاض أوربا والعالم المسيحى فى الغرب ، ولن أقف عند هذا كله ، لأنه خارج عن نطاق القضية التى أعرض لها هنا ، إنما يهمنى منه إشارته إلى قضية المرأة فى الأندلس ، ويعرض

لها قليلاً ، وإشاراته إليها عابرة ، ولكنه يأتى بها فى صورة قاطعة ، وهنا موضع الخطورة . فهو يرى أن الأندلسيين "كانوا يتيحون للمرأة حرية فريدة فى خروجها للشارع ، من الصعب ربطها بالعادات الإسلامية ، والدليل عليها ما أورده ابن حزم فى كتابه "طوق الحمامة" ، وروايات تاريخية أخرى معروفة ، فهم يحترمونها ويضعونها موضع التقدير ، وكلاهما إرث أسبانى خالص . وقد أشار هنرى بيريس إلى موقف المرأة المسلمة المتميز بالنسبة للمرأة الشرقية ، وبلغ الأمر بليفى بروفنسال أن صرح بأنهن كن فى أيامهن تلك ، على نحو ما يعترف به لهن اليوم فى المغرب الأقصى ، بين البيوت الإسلامية ذات الأصل الأسبانى ، من حق مشاركة الرجل فى كل تصرفاته، وكما بلغ التأثير مسلمى شبه الجزيرة الإيبيرية أدرك المسلمين الأفريقيين ، وعلى العكس يزيد الأمر وضوحاً لما نعرفه عن دور المرأة فى أسبانيا البدائية ".

وكان المستشرق الفرنسى هنرى بيريس أكثر تعقلاً من غيره ، فقد تحدث عن "المرأة والحب " فى فصل خاص من كتابه القيم : " الشعر الأندلسى فى القرن الحادى عشر : جوانبه العامة ، وموضوعاته الرئيسية ، وقيمته وثيقة"[1]، وحاول فيه أن يستنطق قصائد الشعراء وإشاراتهم ، وانتهى إلى أن الإسلام استطاع أن يسم المجتمع الأندلسى "بطابعه فى بعض مظاهره الخارجية دون أن يشكله بعمق ، واستطاعت المرأة رغم كل الضواغط الدينية أن تلعب دوراً رئيسياً، أوضح مظاهره ، هذا القلق الذى تثيره فى فكر الرجل " . ولم تكن المرأة الأندلسية "منزوية على نحو ما كانت نظم الإسلام تريدنا أن نراه فى كل امرأة مسلمة . وثمة وقائع عديدة تؤكد ما نشعر به من خلال أحاسيس الشعراء القوية . فالرمادى يتجول فى يوم جمعة بين رياض بنى مروان فى قرطبة ، ويلتقى بفتاة شابة تأخذ بمجامع قلبه فيحادثها ، ولا يدعها تمضى إلا بعد أن يحصل منها على موعد بلقاء فى يوم الجمعة التالية . وكانت هذه الفتاة الشابة

([1]) ترجمته إلى اللغة العربية وسينشر قريباً بعنوان : الشعر الأندلسى فى عصر الطائف.

تسمى "خلوة" وكانت تضع خماراً على التأكيد ، ولكن كيف نتصور رجلاً يستطيع أن يتحدث طويلاً وعلانية إلى امرأة ، على قارعة الطريق ، دون أن يتعرض لنظرات شذرة ، لو لم يكن الجنس اللطيف يتمتع بحرية حقيقية ؟ " ويستشهد بوقائع متعددة ، فى قرطبة وغيرها ، وردت فى طوق الحمامة ، أو نفح الطيب ، أو قلائد العقيان ، وفى مصادر أخرى ، دون أن يجزم برأى قاطع . ودعا إلى التفرقة بين ما هو غربى أصيل ، وما هو شرقى وافد ، ورد عدداً من مظاهر حرية المرأة إلى المناخ المسيحى الذى تحرك عليه الإسلام فى أرض شبه الجزيرة الإيبيرية .

موقفنا من هذه الآراء :

وموقفنا من مثل هذه الآراء أن إلقاء أحكام عامة ، فى قضية اجتماعية كهذه بالغة التعقيد ، تمس مجتمعاً متعدد السلالات والأديان والطبقات ، عرضه للخطأ الجسيم ، فالمرأة اليوم فى مصر وبلاد عربية أخرى تتمتع بحرية واسعة إلى حد كبير ، تذهب إلى الجامعات ، وإلى بلاد أجنبية لتتعلم ، أو تتاجر ، أو للسياحة ، وتلبس أحدث نماذج الأزياء " دون نظر لغير متطلبات العصر ، وثمة فتيات أخريات قعيدات البيت ، يؤثرن الإنزواء ، أو يراد لهن ، يغطين الرأس ، ويلبسن الساتر من الثياب ، ويرين مخاطبة الرجل إثماً ، فهل يعقل أن نرسل عن الأندلس حكماً عاماً ، استناداً إلى رواية وردت فى كتاب ، أو بيت من الشعر جاء فى قصيدة ؟.

وإذا أخذنا العربية السعودية ، وأخالها من أشد البلاد العربية محافظة فى قضية المرأة ، ويراها المستشرقون مثلاً أبلغ لما هو أسوأ من المحافظة ، وتجاوزنا السطح إلى العمق ، والشكل الخارجى إلى واقع الحياة ، فسنجد من الخطأ إرسال حكم عام عليها ، لأن المرأة فى البادية غيرها فى الحاضرة ، وهى داخل الجزيرة غيرها فى الخارج ، ولقد أتيح لى فى بعض رحلاتى إلى أوربا أن

ألتقى بفتيات سعوديات ، كن مثلاً عالياً فى الشخصية والثقافة والأناقة والجمال ، فى مستوى أرقى ما وصلت إليه المرأة فى عالمنا المتحضر .

إنما تجئ أخطاء المستشرقين من المقارنات الخاطئة ، ومن دراسات تقوم فى جلها على كتب الفقه ، وهى لا تقدم ما يحدث فى واقع الحياة ، وإنما نعكس فى الكثير من الحالات مطامع أصحابها وعقلياتهم وانحرافهم أيضاً ، ولو رجعوا إلى واقع المرأة العربية ، فى حياتها اليومية ، خلال عصر النهضة الإسلامية ، قبل أن تزحف على الإسلام ظلامات الفكر الأوربى الوسيط ، لوجدوها تعمل إلى جانب الرجل ، وموضع الرعاية والتكريم منه ، وعلى مستواه من حماية القانون ، وإذن فالقول برقى المرأة الأندلسية لأنها تنحدر من أصول غير عربية فيه مجافاة للواقع ، وعدوان على العقل .

والذين يلمحون لأسباب دعائية غير علمية إلى أن المسيحية كانت وراء هذا القدر من الحرية ، يتناسون عامدين أن أسبانيا لم تكن وحدها البلد المسيحى الذى اجتاحه الإسلام ، فمثلها كان الشام والعراق ومصر وشمال أفريقية ، فى جانبه الساحلى على الأقل ، والذين يتشبثون بأسباب الحضارة الرومانية ، ينسون أيضاً أنها كانت فى الشام والإسكندرية أوضح منها فى أسبانيا ، وهذا إذا سلمنا جدلاً ، وهو أمر غير مسلم ، بأن مستوى المرأة فى الحضارة الرومانية ، كان أرقى منه فى الحضارة العربية أو الإسلامية ، وهو أمر ليس عليه شاهد من أحداث التاريخ .

وإذا أخذنا لذلك مثلاً من مقاطعة بروفانس ، فى جنوب فرنسا ، على أيام ابن حزم ، وستصبح أرقى بلد أوربى فى تلك الفترة ، وبتأثير أندلسى ليس هنا مجال درسه ، فسنجد مثلاً أن "الزواج يتم بين السيدين ، فى ضوء مصالحهما الإقطاعية ، أكثر منه تحقيقاً لرغبة الشاب أو الفتاة ، ومع الزواج يملك الزوج جسد الفتاة كله ، ولم يكن فى حاجة أبداً لأن يترضاها فى شئ يملكه قانوناً ، وله حق تأديبها مادياً ، يضربها حين لا تتقبل أوامره ، أو تثيره أو تزعجه ، شريطة أن يكون هذا باعتدال ، وألا يؤدى إلى موتها . وكانت التقاليد قاسية جداً على

المرأة فى حالة الخيانة ، فالمرأة المخطئة تسجن فى الدير طوال حياتها ، وإذا ضبطت متلبسة ، فإن الزوج يأتى بأولادها ليشهدوا لحظة إعدامها . أما الزوج المخطئ فكان على النقيض ، يخرج سالماً من أوسع الأبواب .

كان العصر الأوربى الوسيط ، بتأثير الكنيسة المسيحية ، عدواً لدوداً للمرأة ولم يعطف عليها رجال الكنيسة أبداً، ولا تأتى فى كتاباتهم إلا مقرونة بوصف مسئ ، فهى : ذكرى مزعجة ، والطريق إلى النار ، وسلاح الشيطان ، وحارس جهنم المتقدم ، وشبح إبليس ، وسهم الشيطان ، وغيرها من النعوت ، نجد ذلك عند سان يوحنا ، وسان أنطونين ، وحنا الدمشقى ، والقديس جيروم ، وغيرهم . وسار على طريقهم من بعدهم كل الدعاة ، ورجال الأخلاق ، وهكذا ظلت قلوب رجال الدين طوال العصور الوسطى مغلقة فى وجه المرأة ، ومغلفة بالقسوة ، وكان الفرسان الحديديون ، العائدون من الشرق الأوسط بعد الحروب الصليبية ، أو من الأندلس بعد غاراتهم أو رحلاتهم أو مساعدتهم لرفاقهم فى الدين هناك ، أول من اعترف بها إنساناً لطيفاً . لقد عاش هؤلاء يتغنون بالبطولة، ولا يشغلون أنفسهم بغيرها ، حتى ولا ما اتصل منها بالدين نفسه ، وإذا لم تؤد الحروب الصليبية إلى النتائج المنتظرة من الاستيلاء على الأرض المقدسة ، وامتلاك بيت المقدس ، فقد أدى الاصطدام بين الشرق والغرب إلى نتائج هائلة ، فى المجالين الاقتصادى والاجتماعى على الأقل ، فترك الشرق ، وكان أغنى ثروة وأرقى حضارة ، تأثيراً واضحاً فى حياة الصليبيين ، وسرعان ما تهذبت هذه الأعداد الكبيرة ، بقدر لا يتصور ، فدرجت على تذوق الترف ، وتفتح عقلها وخيالها على ألوان من الحياة الراقية كانت تفتقدها تماماً ، وفى حروف دينية كهذه لم يعفوا عن حمل الثروات والغنائم ، وما أسرع ما غيروا عاداتهم عندما عادوا إلى أوطانهم . وعاصر الحروب الصليبية نمو التجارة فى البحر الأبيض المتوسط ، وفى الموانى الإيطالية بخاصة ، وشهدت أيضاً ازدهار المعارض التى تحمل كل منتجات الشرق : السجاد والمرايا والتوابل والأقمشة الجميلة ، وتحمل اسم دمشق موطن صنعها.

وشهدت بداية العصر الوسيط احترام المرأة فى أوربا ، وارتفاع الكنيسة إلى مستوى الفرسان ، وشعراء التروبادور من هؤلاء هم الذين انتقلوا بها من مخلوق لا يلعب فى الملاحم وفى الحياة دوراً أكثر من عبادة الله والسيد والوطن، إلى شئ جميل يحترمونه ، ويتغنون به ، ويغنون له ، ويعتبرون التسامى به ، والتذلل له ، والذوب صبابة فى حبه ، خلقاً كريماً ، وعادة مرعية ، وشرفاً لا يبلغه غير الفرسان .

المرأة فى الأندلس لحظة الفتح الإسلامى :

كيف وجد المسلمون المرأة فى شبه جزيرة إيبيريا غداة الفتح الإسلامى؟ سؤال من الصعب الإجابة عليه ، لأننا نفتقد الوثائق التى تساعدنا على تحديد موقف المرأة ، والبناء الأسرى الذى كان سائداً فى المجتمع الغربى بين القرنين الثامن ، وتم الفتح الإسلامى فى بدايته ، والقرن الحادى عشر وعاش فيه ابن حزم جل حياته ، ومعه بدأت دول شمال الأندلس المسيحية تأخذ شكل مجتمع متميز ، رغم حاجتنا الشديدة إلى هذه المعرفة . ذلك أن المرأة الأندلسية فى جمهرتها الغفيرة هى أولاً وقبل كل شئ أسبانية ، سواء أكانت حرة أم رقيقة ، زوجة أم عشيقة ، مولدة أم مستعربة " والقليل الذى وصلنا عنها ناقص ومضطرب ومتناقض .

والحضارات التى تركت فى أوربا تأثيراً واضحاً ، وهى : ما قبل الرومانية والرومانية والجرمانية والمسيحية كانت توجه المجتمع الغربى نحو التضييق على المرأة ، وتضع عليها قيوداً لن نلتقى بها فى الحياة الأندلسية فيما بعد ، وكلها تؤكد تميز الرجل ، فالفتاة تخضع لأبيها ، وإلى الأكثر قرباً عند غيابه، ثم لزوجها فيما بعد ، وفضلاً عن ذلك كانت روما تعرف وأد البنات . ويبدو أن المرأة تمتعت بين القوط ، وهم الذين حكموا الأندلس لحظة الفتح الإسلامى ، بقدر أكبر من الاحترام ، فنعرف أن سن الرشد لها فى القرن السادس

الميلادى كان مساوياً لسن الفتى ، وأنها أهل لأن تتولى الوصاية على أبنائهـا إذا كانت أرمل ، وأن تتزوج ثانية إذا أرادت ، ويتوقف الـزواج علـى موافقتهـا ، ويصبح المهر الذى يقدمه الزوج حقاً لها ، ومنذ القرن السابع نجدها فى القانون القوطى تتساوى مع الرجل فى الميراث . ومن المؤكد أن هـذه الحقـوق ظلـت نظرية فى جانب منها ، واقتصرت فى جملتها على طبقـات اجتماعيـة معينـة ، وتجدر الإشارة إلى أن هذه الحقوق دون ما تتمتع به المرأة العربية والمـسلمة ، واقعاً ونظرياً بكثير . وينبغى ألا ننسى أن العنصر الغربى علـى قلتـه ، أعطـى أسبانيا اللغة والعادات والنظم والدين ، ونماذج الحياة المشرقية ، ولون المجتمع الأندلسى بمثله ، وكلها عربية ، وفيما يرى أميركو كاسترو : " التعريب اللغـوى يحمل معه التشريق الخلقى والعقلى ، وعلينا أن نضع فـى الاعتبـار دائمـاً أن تطبيق لغة سامية وانتشارها ، وإحلالها لهجة مشتقة مـن اللاتينيـة ، لابـد أن يؤدى إلى عدد من النتائج من بينها تطوير العقلية ".

المرأة فى طوق الحمامة :

بماذا تحدثنا نصوص " طوق الحمامة " عـن المـرأة ؟ لقـد عـرض الباحثون الكتاب كثيراً بوصه دراسة فى الحب وعن المحبين ، لكن أحداً لم يقـف طويلاً إزاء ما يمكن أن يضيفه إلى معرفتنا بالحياة الاجتماعية فى الأندلس خـلال النصف الأول من القرن الحادى عشر الميلادى ، وسندرس هنا صورة المرأة فى قرطبة من خلال الطوق لا لكى ندعم فكرة أو نناهض أخرى ، وإنما لنـصل إلـى تصور قريب عما كان عليه حالها واقعاً فى الحياة على أيام ابن حزم .

وعندما يتحدث ابن حزم عن المرأة فى قرطبة فإنما يفعـل ذلـك خبيـراً بهن، عالماً بأمورهن ، فهو فيما يحدث عن نفسه : " شاهدت النساء ، وعلمـت من أسرارهن مالا يعلمه غيرى ، لأنى ربيت فى حجورهن ، ونشأت بين أيديهن ، ولم أعرف غيرهن ، ولا جالست الرجال إلا وأنا فى حد الشباب ، وحـين تفيـل

وجهى " ، واهتم بالبحث عن أخبارهن ، وأنسن منه الكتمان فكشفن له عن أسرارهن ، وأطلعنه على غوامض أمورهن ، وأشرف من أسبابهن على غير قليل ، فشب يعرف الكثير من دخائل القصور ، ومؤامرات النساء ، وحيل الجوارى ، وأكسبه ذلك شكاً فيهن ، وسوء ظن فى جهتهن . ولكنه لم يورد لنا كل ما عرف ، ولم يحدثنا بكل ما سمع ، فأبقى على عورات يستعاذ بالله منها فى طى الكتمان .

وأول ما نلحظ فى حديث ابن حزم أنه يقف عند نساء الطبقة العالية ، أى فتيات الأسر التى ينتمى إلى طبقتها ، وحتى الجوارى منهن يتصل حديثهن برجال هذه الطبقة ، ولم يعرض لنساء مشرقيات إلا نادراً ، فى مجال الموازنة أو بالدقة فى ثلاث حالات على وجه الحصر : عرض لقصة جرت فى القاهرة حين أحب العزيز الفاطمى خليفة مصر ، جارية شغلته عن مولد ابنه المنصور والذى سيصبح فيما بعد خليفة مصر ، ودخل التاريخ تحت اسم الحاكم بأمر الله . وحكاية موجزة لقرطبى كان فى بغداد ، هام بعراقية ، وتزايد عليه أمرها ، وخشى الفتنة ، فخرج إلى البصرة ومات بها عاشقاً . والحكاية الأخيرة رواها أبوبكر محمد بن بقى الحجرى عن نفسه ، فق التقى فى بغداد بابنة وكيلة الخان الذى ينزل فيه ، فأحبها وتزوجها ، ولكنها فارقته لسبب لا أرى ذكره مناسباً هنا[1].

ولم يتعرض للمرأة فى الطبقة الوسطى أو الدنيا ، ولا نجد لديه ولا إشارة واحدة ، حتى ولو من بعيدة ، عن المرأة المستعربة أو اليهودية ، وهو أمر طبيعى من رجل لا يكتب بحثاً ، وإنما يدفع بذكرياته ، وما رأى أو سمع ، من خلال دراسته عن الحب ، وما كان لأى من هاتين الطبقتين أن ترتفع إلى مجلس ابن حزم ، خارج نطاق الدرس ، ولم يجلس فيه أستاذاً إلا بعد سنوات من

([1]) انظر صفحة 138 من كتاب طوق الحمامة ، بتحقيقنا ، دار المعارف بالقاهرة ، الطبعة الثالثة ، 1980.

تأليفه "الطوق"، أو يعبر عن أحداثها نصيباً من اهتمامه ، وبداهة كانت تحب وتعشق وتتحرك فى حياتها العاطفية داخل قيم ، قد تلتقى أو تختلف مع مثل الطبقة العليا ، ولكنها متأثرة على التأكيد بوضعها الاقتصادى والطبقى الذى تعيش فيه .

يهدف كتاب "طوق الحمامة " إلى تحليل المشاعر العاطفية ، ومواقف العشاق ، ويأتى الحديث عن المرأة فيه بوصفها طرفاً فى هذه القضية ، وليدعم ابن حزم آراءه أورد عدداً من الوقائع الغرامية حدثت فعلاً ، ولو أنه يصعب علينا فى أحوال كثيرة أن نحدد نوع المحبوب : أهو فتاة أم غلام ، أو نعرف ظروفه الاجتماعية ، وأحياناً ترد القصص فضفاضة ، يصر علينا أن نستنتج منها شيئاً محدداً ودقيقاً ، ويتعمد ابن حزم ذلك ، حفاظاً على أسرار الناس ، واحتراماً لحياتهم الشخصية ، وكثيراً ما يكنى عن الأسماء ، لأنها "إما عورة لا نستجيز كشفها ، وإما نحافظ فى ذلك صديقاً ودوداً ورجلاً جليلاً "، واكتفى بأن يسمى من لا ضرر فى تسميته ، ولا يلحقه والمسمى عيب فى ذكره ، "إما لاشتهار لا يقى عنه الطى وترك التبيين ، وإما لرضا المخبر عنه بظهور خبره ، وقلة إنكاره منه لنقله ".

معنى " جارية فى طوق الحمامة :

والقصص المتصلة بالجوارى أكثر من تلك التى يرد فيها ذكر الحرائر ، وكلمة "جارية " فى كتاب " الطوق " تستحق وقفة مستأنية . لقد وقف أورتيجا إى جاسيت فى مقدمته التى ترجمناها ، وأوردنا نصها فيما مضى من صفحات عند كلمة "الحب" ، وتساءل عما إذا كان فقه اللغة العربية قد توصل إلى تحديد دقيق لمفهوم اللفظ عند عرب الأندلس فى القرن الحادى عشر ؟ وبدورى أوجه السؤال نفسه : ترى ما هو مفهومهم ، ومفهومنا ، لكلمة "جارية" عندما ترد فى نصوص "طوق الحمامة "؟.

تجئ المرأة القرطبية محبوبة من خلال "طوق الحمامة " فى ثلاثين موقفاً، وكلهن ينتمين إلى الطبقة العليا دون شك ، وفى خمسة وعشرين منها نجد أنفسنا بإزاء حب المؤلف نفسه ، أو حب واحد من أصدقائه ، أو شخصية معروفة له ، لواحدة يصفها بأنها "جارية" ، وفى الحالات الخمس الباقية يشير إلى نساء حرائر صراحة ، من الطبقة نفسها ، على قدر كبير من الثقافة والرقى والصقل ، لا يقل عما كانت عليه الجوارى ، ويلعبن فى الحياة العاطفية والاجتماعية دوراً ملحوظاً ومتقدماً . وفيما يتصل بالأحداث العاطفية المتصلة بالجوارى نحن بإزاء لونين منهن : حالات ينص فيها ابن حزم صراحة على أنهن جوارى تجرى عليهن أحوال البيع والشراء ، أو يدعنا نفهم ذلك يقيناً ، وفى حالات أخرى صمت وتركنا فى حيرة ، ولو أن جو الأحداث يجعل من المؤكد أن "الجارية " فى مثل هذه الروايات فتاة حرة ، وأن اللفظ يجئ صفة لها ، إيماء إلى ما هى عليه من ثقافة وصبى وجمال وأحياناً تأتى فى سياق من المستحيل معه أن تكون أمة رقيقة . والكثيرة الغالبة من المستشرقين أقامت دراستها على أن لفظ "جالية" يعنى دائماً أنها رقيقة مشتراة ، والقلة تجاوزت اللون الأخير ، الذى عرضنا له ، دون أن تتوقف عنده أو تبنى عليه حكماً .

إزاء هذا الواقع بدا من المفيد أن نحدد أولاً معنى كلمة "جارية" . إذ عدنا إلى المعاجم العربية ، وهى بداية طريقنا لتحديد المحتوى ، وجدنا أنها تعنى فى القاموس المحيط للفيروزبادى : "فتية النساء" وفى ديوان الأدب للفارابى : "التى نهد ثديها" ، وتوسع المصباح المنير للفيومى ، وتميز من بين كل المعاجم بأنه يشير إلى الدلالات الفقهية للألفاظ ، فذكر أنها "الشابة لخفتها ، والجارية السفينة، سميت بذلك لجرياتها فى البحر ، ومنه قيل للأمة جارية ، على التشبيه ، لجرياتها مستسخرة فى أشغال مواليها ، ثم توسعوا حتى سموا كل أمة جارية ، وإن كانت عجوزاً لا تقدر على السعى ، تسمية بما كانت عليه ". فأنت ترى أن كلمة جارية يراد بها لغة فى الأصل : "الفتاة الكاعب الشابة" ، وأضيف أنا ، أنها كانت تطلق فى قرطبة على الفتيات والشابات من الحرائر أيضاً ، ممن يجمعن

هذه الصفات ، وصفات أخرى ارتبطت بالجوارى فى تلك الأيام ، من التربية العالية ، والثقافة الواسعة ، والعواطف الدافئة ، والتمكن من الموسيقى ، عزفاً وتذوقاً ، ومعرفة الغناء ، وحفظ الشعر ، وألوان من الجمال الحسى ، كبياض البشرة ، وشقرة الشعر ، وزرقة العينين ، مما حدثنا عنه ابن حزم نفسه ، وسنعرض له فيما بعد .

إذن ليست كل جارية "رقيقة " فى كتاب الطوق ، وتجاهل هذه الحقيقة أدى إلى أخطاء فادحة فى تقييم وضع المرأة الأندلسية ودورها ، وغراميات ابن حزم الثلاثة ، التى تحدثت عنها فى الطوق ، تدور حول جوار ، فى إحداها يقول: "أحببت فى صباى جارية . ." ثم يضيف : إنها نشأت فى دارهم ، ولكننا سوف نجد فى منتصف الطريق من القصة أنها لم تنتقل معهم حين تركت أسرته منية المغيرة إلى مساكنهم القديمة فى بلاط مغيث ، لأسباب لم يفصح عنها ، واكتفى بقوله : " ولم تنتقل بانتقالنا لأمور أوجبت ذلك ".

أما فى القصة الثانية فيقول :" كنت أشد الناس كلفاً وأعظمهم حباً بجارية لى ، كانت فيما خلا اسمها نُعم . .". ونلحظ هنا أنه أضاف الجارية لنفسه ، وأعطانا اسمها ، وتركنا نفهم فى لباقة أنه بلغ بحبه لها غايته ، فعرف الحياة معها لأول مرة ، وأصبحت هى على يده امرأة ، وكانت المودة بينهما متكافئة ، وأن الموت اختارها منه فتية ، كانت حين ماتت فى سن العشرين ، وكانت هى دونه ، وأقام بعد وفاتها سبعة أشهر حزيناً عليها : " لا يتجرد عن ثيابه " [1]، وأنه بكاها طويلاً ، على شحيح دمعه ، وجمود عينه .

---

(1) التعبير لابن حزم ، ومعناه فى لغة العواطف الخاصة غير ما يفهم من ظاهره تماماً ، أن يعنى أن ابن حزم لم يمارس الحب طوال هذه الشهور السبعة ، على نحو حلال طبعاً ، مع زوجة له ، أو جارية ملكتها يمينه ، وليس المراد منه ، كما يفهم من حرفيته ، أنه لم يغير ثيابه طوال هذه المدة . والتعبير يستخدم حتى الآن بين عدد كبير من القبائل العربية المقيمة فى أعلى صعيد مصر ، وبعضها أقدم من المغرب .

وأما القصة الثالثة : فجرت فى بيت امرأة من معارفه مشهورة بالصلاح والتقوى ، ومعها جارية من بعض قراباتها ، من اللاتى قد ضمها معه النشأة فى الصبا ، ثم غاب عنها أعواماً تركها حين أعصرت ، وعاد فوجدها جرى على وجهها ماء الشباب ففاض وانساب ، وتفجرت عليها ينابيع الملاحة فترددت وتحيرت ، وطلعت فى وجهها نجوم الحسن فأشرقت وتوقدت ، وانبعثت فى خديها أزاهير الجمال فنمت واعتمت ، وكانت من أهل بيت صباحة ، وظهرت على صورة تعجز الوصاف ، وطبق وصف شبابها قرطبة . وبات عند المرأة التى يعرفها ثلاث ليال متوالية ، ولم تحجب عنه الجارية ، على جارى العادة فى التربية ، وكاد قلبه أن يصبو ، ويثوب إليه مرفوض الهوى ، ويعاوده منسى الغزل ، وامتنع بعد ذلك عن دخول هذه الدار خوفاً على لبه أن يزدهيه الإحسان ، رغم أنها وجميع أهلها ممن لا تتعدى الأطماع إليهن ، ولكن الشيطان غير مأمون الغوائل .

فابن حزم ، كما نرى ، يستخدم فى مغامراته الثلاث لفظاً واحداً، مع ذلك فأنت لا تشكك أنك فى المغامرة الثانية أمام جارية أمة ، أحبها وتركت فى أعماقه ذكرى آسية ، ولكنها ذكرى موصول استمتع ، حزين على ما ضاع منه . على حين يتحدث فى الثالثة عن فتاة حرة يقيناً ، تتادى جارية دلالا ، لأن الجارية لا تحجب ، وهى موضع الطمع ، وليست لها عائلة تنسب فيها وإنما لها سادة يتصرفون فى شأنها ، وفتاته هنا على النقيض من ذلك كله ، من بيت كريم ولها أهل ، وليست مطمعاً لأحد ، فاختصر الطريق وأمسك بنفسه عن الزلل ، وامتنع عن التردد على بيتهم ، ويرجح بك الظن فى الأولى رجحاناً لا يبلغ حد اليقين ، أن الجارية فيها حرة وليست من الإماء ، لأن ابن حزم اشتهاها ، وتابعها فى إصرار ، وصدته فى لطف ، وبقى على الرغبة فيها عامين كاملين ، ولو كانت من الجوارى حقاً ، تباع وتشترى ، لاشتراها لنفسه ، أو لاشتراها له أبوه ، أو لأفصح عن رغبته هذه على الأقل ولقد عرض أكثر من مرة لبيع وشراء الجوارى العاشقات أو المعشوقات .

وقد تتبعت استخدام اللفظ ، فى وقتنا الحاضر ، فى بعض مناطق من العالم العربى ، فوجدت القبائل العربية التى استقرت فى أعلى الصعيد من جنوب مصر ، قادمة من المغرب فى القرن الحادى عشر الميلادى ، وما تلاه والأندلسيين الذين استقروا فى الجزائر أو المغرب أو تونس ، بعد طردهم من وطنهم عام 1613 ، مازالوا يستخدمون الكلمة فى حياتهم الأسرية ، ينادى بها الرجل زوجه تدليلاً لها وتوداً إليها : يا جارية .

وتحدث ابن حزم أيضاً عن فتيات حرائر ، يذكرهن بأسمائهن حين لا يسئ ذلك إليهن ، ولا يمس القاعدة التى اختطها لنفسه فى أول "الطوق" ، وأشرنا إليها من قريب ، وكلهن ينتسبن فى الطبقة العالية التى ينتمى إليها ، ونعرف من روايته أنهن لسن دون الجوارى ثقافة وتمكنا من المعارف العامة وإجادة للفنون الجميلة وإقبالاً عليها ، فهو يحدثنا عن ضنا العامرية ، كريمة المظفر عبدالملك بن أبى عامر ، الذى ولى الحجابة بعد أبيه ، وكان يقرب منه هيبة ونفوذا وإن قصرت أيامه ، ونعرف أنها تعزف الموسيقى ، وتصنع الألحان لنفسها وتطلب من ابن حزم أن ينظم لها شعراً تلحنه ، وتتغنى فيه .

وعرض ابن حزم مرة واحدة لحالة فى أسرتهم ، وذكرها بالاسم ، حين حدثنا عن الحب العنيف المتبادل بين أخيه أبى بكر : وزوجه عاتكة بنت قند ، وكانت فيما يقول : لا مرمى وراءها فى جمالها ، وكرم أخلاقها وكان أبوها قائد الثغر الأعلى على أيام المنصور بن أبى عام ، قد شغفها حبه ، وأضناها الوجد فيه ، وأنحلها شدة كلفها به ، وكانا فى حد البا وتمكن سلطانه ، لا يلهيها من الدنيا شئ ، ولا تسر من أموالها على عرضها وتكاثرها بقليل ولا كثير ، إذ فاتها اتفاقه معها ، وسلامته لها. فلما توفى فى الطاعون كالذى اجتاح قرطبة عام 401 هـ – 1011 م ، وهو ابن اثنين وعشرين سنة ، لفها السقم والمرض والذبول إلى أن ماتت بعده بعام . ولم يكن له قبلها ولا معها امرأة غيرها ، وهى كذلك لم يكن لها غيره .

المرأة والحب :

وتستطيع المرأة فى المجتمع القرطبى إذا فاضت مشاعرها أن تعشق ، وأن تعبر عن عشقها ، وأن تأخذ زمام المبادرة ، وأورد لنا ابن حزم مثالين لهذا، فتاتين حرتين ، وكليهما من طبقته على جارى عادته ، ذكر اسم الأولى ومن أحبته ، لأن غرامها انتهى بالزواج ، وفارق الزوج والزوجة هذه الدنيا فى وقت متقارب ، قبل أن يحرر كتابه بسنوات ، فلم يجد فى ذكر الأسماء حرجاً ، وهى عاتكة بن قند وأخو أبوبكر ، على نحو ما ذكرنا من قريب . أما المثال الثانى فعن فتاة من "ذوات المناصب والجمال والشرف من بنات القواد "، وأطلق عليها لفظ "جارية" ، رغم أنها حرة أكيداً ، لأن صاحبتها كانت فيما يبدو على قيد الحياة ، وهو يكتب "طوق الحمامة" ، فلم يرد أن يكشف حالها ، ولأن الشاب الذى عشقته كان أكثر من صديق ودود لابن حزم ، فهو يصفه بأنه : "من إخوانى جداً"، وكان الفتى من أبناء الكتاب ، وبلغ بها حبه مبلغ هيجان المرار الأسود ، وكادت تختلط، واشتهر الأمر وشاع جداً ، حتى علمه الأباعد ، إلى أن تداركت بالعلاج .

وكان الذين يجمعون إلى المركز الاجتماعى المرموق ، صباحة الوجه ، ورجاحة العقل ، واكتمال الصورة ، وارتقاء السلوك ، يصبحون مهبط الأطماع ، وقبلة الفتيات ، ويحدثنا ابن حزم أن ابا عامر ، ابن المظفر عبدالملك الحاجب الثانى للعامريين ، وحفيد المنصور ابن أبى عامر ، كان جاراً لهم ، وبيته ملاصق لبيتهم ، حين كان آل حزم يسكنون منية المغيرة فى الجانب الشرقى من قرطبة ، ويصفه بأنه "من أهل الأدب والحذق والذكاء والنبل والحلاوة والتوقد ، مع الشرف العظيم ، والمنصب الفخيم ، والجاه العريض " ، وحسن الوجه ، إذ سار إلى بيتهم تخطفته عيون الفتيات ، وتزاحمن على رؤياه ، ومات كثيرات من محبته ، لأنهن علقن أوهامهن به ، وخانهن ما أملنه فيه ، ويقدم لنا ابن حزم واحدة منهن ، جارية تسمى عفراء ، عرفها وعهدها لا تتستر بمحبته حيث

جلست ، ولا تجف دموعها ، ويضيف أن أبا عامر أخبره بأنه "يمل اسمها فضلاً عن غير ذلك ".

ويقص حديثا امرأة سرية النشأة ، عالية المنصب ، غليظة الحجاب ، رأت فتى من أبناء الكتاب عابراً قرب منزلها ، فعلقته وعلقها ، وتهاديا المراسلة زماناً على أرق من حد السيف ، ويتركنا ابن حزم عند هذا القدر من القصة لا يزيد شيئاً ، لأن بطليها معاصرين له ، والمعاصرة حجاب ، ويعتذر لنفسه : " لم أقصد في رسالتي هذه كشف الحيل وذكر المكائد " ويدعو الله لهما ، ولجميع المسلمين ، أن يسبل عليهم سترة .

كانت المرأة الأندلسية إذاً تتمتع بقدر من الحرية لا بأس به ، إذ قيس الأمر بأحوال تلك الأيام ، وهي حرية تتحرك في نطاق تقاليد العصر نفسه ، ومن الخطأ أن نوازن بينها وبين واقع المرأة في العالم المتحضر على أيامنا . مثلاً لم يكن طابع الحياة الاجتماعية يسمح بالاختلاط في دائرة واسعة على النحو المعهود بيننا ، ولكن الرجال والنساء كانوا يلتقون في ساحة الدرس ، وفي السمر العائلي، وفي الحفلات الاجتماعية ، وأعجبني ابن حزم حين رد حجب الفتيات عن الفتيان الأجانب عن الأسرة في البيوت إلى جارى العادة وحدها ، فهو يقول عن الفتاة الجميلة التي التقى بها عند سيدة من معارفه بأنها : "لم تحجب عني على جارى العادة في التربية " . والعادة تختلف من طبقة إلى أخرى ، وتتمايز بين جماعة وجماعة ، وتتفاوت من جيل إلى جيل ، وهو نفسه يحدثنا عن جارية اشتد وجدها بفتى من أبناء الرؤساء ، عفيف ومتصاون وبعيد عن المعاصي ، ولا علم عنده ، وكثر غمها ، وطال أسفها ، وضنيت بحبه ، وهو بغرارة الصبا لا يشعر ، ويمنعها الحياء من إبداء رأيها إليه ، وكانا إلفين في النشأة ، فلما تمادى الأمر شكت ذلك إلى امرأة صائبة الرأى ، كانت تثق بها لأنها قامت على تربيتها فنصحتها بأن تعرض له بالشعر ، ففعلت المرة بعد المرة وهو لا يأبه بها ، إلى أن عيل صبرها ، وضاق صدرها ، ولم تمسك نفسها في قعدة كانت لها معه ، في بعض الليالي منفردين ، فلما حان وقت قيامها عنه ، بدرت إليه فقبلته في فمه ،

ثم ولت ولم تكلمه ، تتهادى فى مشيها ، فبهت وسقط فى يده ، وقعت فى عضده ، وكان هذا بدء الحب بينهما دهراً ، إلى أن جذت جملتها يد النوى .

وسيدات الطبقة التى منها ابن حزم "مقصورات " و "محجوبات " على حد تعبيره ، ولكن كلمة "مقصورة ، أو محجوبة " ، لا تعنى أنهن بمعزل عن الرجل ، وأن أسواراً عالية وصفيقة من الفرقة تقوم بينهما ، وإنما تشير إلى مركزهن الاجتماعى من الثراء والرفاهية ، فهن لا يفارقن البيوت عاملات أو ساعيات فى طلب الرزق ، ولهن من الخدم والأعوان ما يغنيهن عن الخروج ، فهن يقضين حياتهن فى البيوت – وأى بيوت – يجلسن جماعات ، تأتيهن الأخبار ، ويتبادلن الإشاعات ، ويحبين على الوصف "أقاربهن من الرجال ، وحب النساء فى هذا أثبت نمن حب الرجال " . ويقص علينا ابن حزم خبر صديق له من سروات الرجال ، دهى بمحبة جارية مقصورة ، وهام بها ، وقطعه حبه عن كثير من مصالحه إلى أن كانت هى التى تعذله على ما ظهر منه ، ومما يقوده إليه هواه ، فكيف تأتى لهذه "المقصورة" أن تعذله لو لم تكن تلقاه ، وتتحدث إليه ؟

ويدرك ابن حزم واعياً دور الفراغ والتبطل والترف ، مع القدرة ، والسلامة والصحة ، فى حياة المرأة ، وكيف يصبح الزواج معها مطلباً وغاية وبهجة ، وإليها يرد دوران فكرها حول الجنس ، وإلحاحها عليه ، "وما أعلم علة تمكن هذا الطبع من النساء ، إلا أنهن متفرغات البال من كل شئ ، إلا من الجماع ودواعيه ، والغزل وأسبابه ، والتآلف ووجوهه ، ولا شغل لهن غيره ، ولا خلقن لسواه ، والرجال مقتسون فى كسب المال وصحبة السلطان ، وطلب العلم ، وحياطة العيال ، ومكابدة الأسفار ، والصيد وضروب الصناعات ، ومباشرة الحروب ، وملاقاة الفتن ، وتحمل المخاوف ، وعمارة الأرض ، وهكذا كله محيف للفراغ ، صارف عن طريق البطل " وهى لفتة عصرية ، رغم ألف عام مضت عليها ، تحسب لابن حزم ، وتلتقى مع أحدث نظريات علم النفس الحديث .

المهن التى تمارسها المرأة :

وقدم لنا ابن حزم عرضاً ، وفى إلماحات خاطفة ، أولناً من المهن التى أسهمت فيها المرأة أو اختصت بها – ومن غير طبقته بالطبع – فهى تعمل مربية ومدرسة لأبناء الطبقة العليا ، وتربى هو نفسه على يدها ، تعلم معها القرآن ، وأجاد الخط ، وتذوق اشعر ، ومنهن كانت الطبيبة والحجامة والسراقة والدلالة ، والماشطة والنائحة ، والمغنية والكاهنة ، والمعلمة والمستخفة ، والصناع فى المغزل والنسيج ، وما أشبه ذلك ، ومن نافلة الحديث القول بأن المرأة فى الطبقة العليا كانت تحسن الموسيقى ، ونعرف ألوانها المختلفة وتجيد الغناء فى ألحان تصنعها أو تصنع لها ، ومن بينهن الثريات اللاتى تتميز أملاكهن عن أملاك الزوج ، ويدرنها لحسابهن ، أملاك عريضة وواسعة . ومن الجوارى من كانت للبهجة والمعاشرة ، فهى قارئة ، تغنى وتجيد الموسقى ، وتقرض الشعر ، وتنشده لغيرها إن لم تحسن نظمه ، ومنهن التى ليست على شئ من ذلك ، أو حظها منه قليل ، فهن للخدمة وما شق من أعمال البيت .

التراسل والتهادى بين العشاق :

وكانت المرأة تتراسل مع من تحب ، وتتلقى رسائله أيضاً ، وقدم لنا ابن حزم ألواناً من هذا التراسل ، صوره وطرائفه وحيله ، وكيف يجرى ، فالرسالة تجئ فى "ألطف الأشكال ، وجنسه أملح الأجناس" وهى لا تعنى أن اللقاء بين الاثنين عسير دوماً ، فقد تكتب لهذا السبب ، أو لأنها أبلغ تعبيراً فى بعض الأحيان ، لحصر فى الإنسان أو حياء أو هيبة ، وبعض أهل المحبة ممن كان يدرى ما يقول ، ويحسن الوصف ، ويعبر عما فى ضميره بلسانه عبارة جيده ، ويجيد النظر ويدقق فى الحقائق ، لا يدع المراسلة وهو ممكن الوصل ، قريب الدار ، أتى المزار ، ويحكى أنها من وجوه اللذة ، وتحمل الرسائل عادة النساء

من ذوات المهن اللاتى أشرت إليهن من قريب . وكان دخولهن إلى البيوت سهلاً وميسوراً ، إلى جانب من لا يخشى خطره ، ولا يلفت النظر إليه ، لأنه خامل لا يؤبه به ، ولا يهتدى للتحفظ منه ، من الصبيان وأصحاب الهيئة الرثة ، أو البذاذة فى الطلعة ، وممن لا يلحق الشك به لنسك يظهره ، أو سن عالية قد بلغها، ويبدو أن دور النساء العجائز بين هؤلاء كان أكثر شيوعاً ، ينفذن إلى الحجب المصونة ، ويخترقن الأستار الكثيفة ، والمقاصير المحروسة ، والسدد المضبوطة ، ويعرض ابن حزم أمثلة واقعة لكل هذا ، ولكنه لا يذكر أسماء أصحابها ، ولا يزيد الأمر توضيحاً حتى لا ينبه عليها ، ويكتفى بأن يؤكد على "ذوات العكاكيز والتسابيح ، والثوبين الأحمرين" ، ويشير إلى أن الفتيات الشابات كن يتلقين التحذير منهن ويحدث أحياناً أن تستخدم المرأة أو الرجل حاملاً للرسالة ذا قرابة من المرسل إليه ، لا يضن معها بهذا العون ، وكان المقتدرون يستخدمون الحمام الزاجل أحياناً .

وكان العشاق يتبادلون الهدايا ، على قدر متساو بين المرأة والرجل ، نعرف ذلك من ألوان الهدايا التى ذكرها ابن حزم ، ويبدو أن الأمر كان شائعاً ، فقد جاء به عالم قرطبة الكبير مؤكداً فى أسلوب القصر : "وما رأيت قط متعاشقين إلا وهما يتهاديان خصل الشعر مبخرة بالعنبر ، مرشوشة بماء الورد ، وقد جمعت فى أصلها بالمصطكى ، وبالشمع الأبيض المصفى ، ولفت فى تطاريف الوشى ولخز ، وما أشبه ذلك ، لتكون تذكرة عند البين ، وأما تهادى المساويك بعد مضغها ، والمصطكى إثر استعمالها ، فكثير بين كل متحابين حظر عليها اللقاء ".

الزواج وطرائقه:

ونعرف أن الزواج كان يتم فى سن مبكرة للغاية ، فقد تزوج أبوبكر أخو ابن حزم فى الرابعة عشرة من عمره تقريباً ، على ما نفهم من قصة له فى

الطوق ، ونفترض أن زوجته كانت في مثل هذه السن تقريباً ، إن لم تكن أصغر قليلاً ، فقد توفي في الطاعون الذي اجتاح قرطبة في يونية من عام 1011 م في الثانية والعشرين من عمره ، بعد زواج استمر ثماني أعوام . والعجائز كن يلعبن دوراً في تهيئة الظروف بين الخطيبين ، فالمرأة إذا أسنت وصلحت وانقطع عندها الرجاء ، انصرفت إلى العبادة ، ونسكت بعمل الخير ، فهي تذلل العوائق ، وتحمل الرسائل ، وتحفظ السر ، وأحب الأعمال إليها ، وأرجاها للقبول ، سعيها في تزويج يتيمة ، أو إعارة ثيابها وحليها لعروس مقلة . ويؤثر أبناء الطبقة العليا أن يتزوجوا من فتيات ينتسبن في طبقتهم نفسها ، إلى جانب ما يتسرون ، وتتدخل الأم إذا حاد ابنها عن هذا النهج ويقص علينا ابن حزم أن يحيى بن محمد بن عبدة ، وهو من بيت قرطبي عريق ، أراد أن يتزوج من جارية كانت في بيتهم ، فباعته أمه على غير إرادته ، وذهبت إلى إنكاحه من بعض العامريات، ففقد عقله ، وأصيب بالجنون .

ونعرف من "الطوق" أن رجال الطبقة العالية يفضلون الشقراوات ، وكن العنصر الغالب بين نساء الأندلس فيما يبدو ، وكانت نُعم صاحبة ابن حزم التي عرضنا لها من قبل شقراء ، ولم يكن يرضى بغير الشعر الذهبي بديلاً حتى ولو كان على الشمس ، أو على صورة الحسن نفسه ، ويجد ذلك في أصل تركيبه ، ولا تواتيه نفسه على سواه ، ولا يحب غيره البتة ، وجاء في هذا على مذهب فيه كما يقول . وكان أمراء الأندلس وخلفاؤه مجبولين على تفضيل الشقراوات لا يختلف ذلك منهن مختلف ، وكانوا أنفسهم شقرا نزعاً إلى أمهاتهم وترك ذلك الاتجاه بصماته واضحة في شعر الغزل الأندلسي بعامة ، وعند أبي عبدالملك مروان المعروف بالطليق بخاصة ، وكان أشعر أهل الأندلس على زمانه ، وجاء شعره الغزلي كله في شقراوات [1].

([1]) انظر دارسة كاملة عنه في : غرسيه غومث ، مع شعراء الأندلس والمتنبي ، ترجمة د. الطاهر أحمد مكي ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ، 1979.

وكانت عادة التسرى واتخاذ الجوارى إلى جانب الزوجة شائعة ، لأن ابن حزم حين أراد أن يثنى على الحياة الزوجية لأخيه قال إنه لم يكن لـه قبلهـا ولا معها امرأة غيرها ، وبالمثل يمكن القول ، وهو رد فعل طبيعى ، أن الرجل حـين لا يقن بزوجه ، ولا يخلص لحياة أسرته ، أن تمد الزوجة رغبتها إلـى غيـره ، ويذكر ابن حزم أيضاً ، فى مقام الثناء على زوجة أخيه ، أنها لم يكن لها غيره ، ولكن الجارية تستطيع أن تصد سيدها عن الاستمتاع بها وبخاصة إذا كانت تبيـت على حب قديم ، ويحدثنا ابن حزم عن جارية رائعة جميلة كانـت فـى دار ابـن الركيزة ، محمد بن أحمد بن وهب ، "سبق لها مولى ، وجاءته المنية ، وبيعت ، فأبت أن ترضى بالرجال بعده " وما جامعها رجل إلى أن لقيت الله ، وكانت تحسن الغناء فأنكرت علمها به ، ورضيت بالخدمة ، والخروج عـن جملـة المتخـذات للنسل واللذة والحال الحسنة وفاء منها لمن ذهب ووارته الأرض ، والتأمت عليه الصفائح ، ولقد رامها سيدها المذكور أن يضمها إلى فراشه مع سائر جواريـه ، ويخرجها مما هى فيه ، فأبت ، فضربها ، غير مرة ، وأوقع بها الأدب ، فصبرت على ذلك كله ، وأقامت على امتناعها.

وكانت المرأة صاحبة الرأى فى زواجها ، ويحدثنا "الطوق" عـن جاريـة جميلة كانت لسعيد بن منذر بن سعيد ، صاحب الصلاة فى جامع قرطبـة ، علـى أيام الحكم المستنصر ، أحبها وتعلق بها وعرض عليهـا أن يعتقهـا ويتزوجهـا فطلبت منه ساخرة أن يتخفف من لحيته ، وكانت طويلة كثـة ، لأنهـا تستبـشع ضخامتها ، فأعمل فيها الجلمين ،على حد تعبير ابن حزم ، حتى لطفت ، ثم دعـا بجماعة أشهدهم على عتقها ، وحين خطبها لنفسه لم ترض به ، وكان فى جملة من حضر أخوه حكم بن منذر ، فأسر إلى واحدة فى المجلس أن يعـرض عليهـا رغبته فى خطبتها لنفسه ، فرضيت به ، وتزوجته فى ذلـك المجلـس بعينـه ، وكرهت قرطبة هذا الموقف من الحكم ، على نسكه وورعـه واجتهـاده ، لكـن الجارية أنفذت رأيها ، وما كانت لتستطيع ولو لم يكن لها ذلك حقاً مقرراً .

وقد حرص الجادون من الكبار على أن يقيموا دون حياتهم الخاصة أسواراً عالية ، وأستاراً صفافاً ، ينأون بها عن أحاديث السمر ، ويجلون أشخاصهم أن تصبح موضع القال ، ولقد تغزل شاعر من قرطبة فى السيدة صبح أم هشام المؤيد ، وكانت فى فترة من حياتها على صلة بالمنصور بن أبى عامر ، ودفع بالشعر على لسان جارية تغنى به فى مجلسه ، فما أن غنت به ، حتى أمر بقتلها . وكان البيت المالك ينأى بفتياته أن يصبحن حديثاً يدور على ألسنة الشعراء تغزلاً وإعجاباً ، وحين تغزل أحمد بن مغيث ، وينتسب فى أسرة قرطبية عريقة ، بإحدى بنات الخلفاء ، ولم يفصح لنا ابن حزم عن اسمها ، كجارى عادته فى مثل هذه المواقف ، قُتل وأبعدت أسرته عن المناصب العامة ، وكان ذلك سبباً لهلاكهم وانقراض بيتهم .

ويقدم لنا ابن حزم صورة دقيقة ومفصلة للمرأة حين ترغب ، ولها حين تكره ، "و لقد رأيت امرأة كانت مودتها فى غير ذات الله عز وجل ، فعهدتها أصفى من الماء ، وألطف من الهواء ، وأثبت من الجبال ، وأقوى من الحديد ، وأشد امتزاجاً من اللون فى الملون ، وأنفذ استحكاماً من الأعراض فى الأجسام ، وأضوأ من الشمس ، وأصح من العيان ، وأثقب من النجم ، وأصدق من كدر القطا ، وأعجب من الدهر ، وأحسن من العبر وأجمل من وجه أبى عامر ، وألذ من العافية ، وأحلى من المنى ، وأدنى من النفس ، وأقرب من النسب ، وأرسخ من النقش فى الحجر ".

"ثم لم ألبث أن رأيت تلك المودة قد استحالت عداوة أفظع من الموت ، وأنفذ من السهم ، وأمرض من السقم ، وأوحش من زوال النعم ، وأقبح من طول النقم ، وأمضى من عمق الرياح ، وأضر من الحمق ، وأدهى من غلبة العدو ، وأشد من الأسر ، وأقسى من الصخر ، وأبغض من كشف الأستار ، وأنأى من الجوزاء ، وأصعب من معاناة السماء ، وأكبر من رؤية المصائب ، وأشنع من خرق العادات ، وأفظع من فجأة البلاء ، وأبشع من السم الزعاف ، ومالاً يتولد مثله عن الدخول والترات ، وقتل الآباء وسبى الأمهات ".

موقف ابن حزم من المرأة :

وتبقى نظرة ابن حزم إلى المرأة . هل استطيع القول أنها نظرة الكثـرة الغالبة من طبقته وفى جيله ؟ هممت أن أرجح ذلك لولا أن ابن حزم حرر كتابـه ولما يتجاوز الثامنة والعشرين من عمره ، وهـى سـن تغلـب فيهـا الحماسـة والاندفاع والانفعال ، فيجئ حصادها الفكرى متسماً بالقوة والتوهج ، ولكنه أقرب إلى الذاتية المنفعلة منه إلى الموضوعية المتأملة ، ولعله فيما عاش من أعـوام امتدت به حتى قاربت السبعين ، طامن من حدته ، وأعاد النظر فى أفكاره ، ولـو أنها فى جوهرها ظلت صحيحة وسليمة دون ما شك ، وقد أنصفها فـى مـواطن كثيرة ، فيرى أن الرجال والنساء سواء فى قمع الشهوات والميل إليهـا : "ومـا رجل عرضت له امرأة جميلة بالحب ، وطال ذلك ، ولم يكن ثم مانع ، إلا وقع فى شرك الشيطان ، واستهوته المعاصى ، واستفره الحرص ، وتعوكه الطمع . ومـا امرأة دعاها رجل بمثل هذه الحالة إلا وأمكنته ، حتماً مقضياً ، وحكمـاً نافـذاً ". "وشئ أصفه لك تراه عياناً ، وهو أنى ما رأيت قط امرأة فى مكان تحس أن رجلاً يراها ، أو يسمع حسها ، إلا وأحدثت حركة فاضلة كانت عنها بمعـزل ، وأتـت بكلام زائد كانت عنه فى غنية ، مخالفين لكلامها وحركتا قبل ذلك ، ورأت التهمم لمخارج لفظها ، وهيئة تقلبها ، لائحاً فيها ، ظـاهراً عليهـا ، لا خفـاء بـه . والرجال كذلك إذا أحسوا بالنساء ".

"ولست أبعد أن يكون الصلاح فى الرجال والنساء موجوداً ، وأعوذ بالله أن أظن غير ذلك ، وإنى رأيت الناس يغلطون فى معنـى هـذه الكلمـة ، أعنـى الصلاح ، غلطاً بعيداً . والصحيح فى حقيقة تفسيرها أن الصالحة من النساء هى التى إذا ضبطت انضبطت ، وإذا قطعت عنها الذرائع أمسكت والفاسدة هى التـى إذا ضُبطت لم تنضبط ، وإذا حيل بينها وبين الأسباب التى تسهل الفواحش تحيلت فى أن تتوصل إليها بضروب من الحيل . والصالح من الرجال من لا يداخل أهـل الفسوق ، ولا يتعرض إلى المناظر الجالبة للأهواء . ولا يرفع طرفه إلى الصورة

البديعة التركيب . والفاسق من يعاشر أهل النقص ، وينشر بصره إلى الوجوه البديعة الصنعة ، ويتصدى للمشاهد المؤذية ، ويحب الخلوات المهلكات . والصالحان من الرجال والنساء كالنار الكامنة في الرماد ، لا تحرق من جاورها إلا بأن تحرك ، والفاسقان كالنار المشتعلة تحرق كل شئ ". ويرى أن المعاناة اليومية إذا جارت ، والخدمة إذا تجاوزت الحد ، والغذاء إذا قل ، تذهب بجمال المرأة وتأتي على نضارتها ، "وإنما النساء رياحين متى لم تتعاهد نقصت ، وبنية متى لم يهتبل بها استهدمت ، ولذلك قال من قال :إن حسن الرجال أصدق صدقاً وأثبت أصلاً، وأعتق جودة ، لصبره على ما لقي بعضه وجوه النساء لتغيرت أشد التغير ، مثل الهجير والسموم والرياح ، واختلاف الهواء وعدم الكن ". ولست أرى الأمر كذلك ، فالحق أن الرجل والمرأة في هذا سواء أيضاً .

ولم يكن ابن حزم يرى في سماع الغناء ، ولو من امرأة ، أو الموسيقا ، شيئاً يكره ، أو يخالف قواعد الشريعة ، مادامت المتعة تجئ من الفن وحده ، دون أن تحرك المرأة كأنثى في أعماق الرجل لذاذات الشهوة ، ويقول عن نفسه: "وإني لأنكر أني دعيت إلى مجلس فيه بعض من تستحسن الأبصار صوته، وتألف القلوب أخلاقه ، للحديث والمجالسة دون منكر ولا مكروه فسارعت إليه ، وكان هذا سحراً " . لقد استجاب ابن حزم للدعوة ، ولكنه أمسك عن الذهاب ، بعد أن صلى الصبح ، وأخذ زيه ، لأن فكراً طرقه ، فسنحت له أبيات من الشعر ، فبقي معها حتى أكملها ، ثم كتبها ودفعها إلى صديق كان معه .

ولم يكن ابن حزم يحسن الظن بالمرأة كثيراً ، وهي نتيجة طبيعية لما مر تحت عينه من تجارب وأحداث ، حين كان صبياً ، أو في سن فتية ، فلم يستطع لها تعليلاً علمياً ، ولا ردها إلى أسبابها المنطقية ، ولا نسى شيئاً مما رآه بينهن، فأدى ذلك إلى غيرة شديدة طبع عليها ، وسواء ظن في جهتهن فطر عليه ، وقد أشرف من أسبابهن على غير قليل .

ونلحظ في نهاية المطاف أن ابن حزم على امتداد كتابه أمسك عن أية إشارة تتصل بحياته الأسرية ، ولم يعرض لأية أحداث تتصل بعائلته ، فلا نعرف

شيئاً ، ولو عارضاً ، عن زوجه أو أمه ، خارج اعترافاته الذاتية عن غرامياته ، ولم ينته فى أى منها إلى الزواج ، وعدا حديثه عن أخيه أبى بكر وزوجه عاتكة. ولا نجد بين صفحات الكتاب صدى لولادة بنت المستكفى وعاصرت ابن حزم ، وكانت حديث قرطبة ومنتدياتها ، لأن ولادة أخذت طريقها إلى الشهرة والتحرر بعد وفاة والدها الخليفة المستكفى عام 1025م ، وهى على أبواب السادسة عشرة من عمرها ، طرية الإرادة ، غفلاً من التجربة تشق طريقها إلى المجد خائفة وجلة ، وسط أحداث صاخبة ، وفى عاصمة قلقة ، تبيت على فتنة وتصبح فى بركان ، ومع خطاها الأولى لم يكن ابن حزم فى قرطبة ، كان خارجها ملاحقاً ومضطهداً ومنفياً ، وقبل هذا التاريخ سنوات ثلاث تقريباً كانفى شاطبة يحرر رسالته ، ولم يكن ساعتها فى حياة ولادة ما يرفعها إلى مرتبة أن تصبح واحدة من بطلات الطوق ، وأن تدخله تاريخاً يروى ، وحدثاً يسجل [1]، وعرفها ابن حزم على التأكيد طفلة ، كما عرف أباها ، وكان قد ألقى به فى "المطبق" أقسى سجون قرطبة ، مع ابن عمه أبى المغيرة ، واحتفظ له ابن حزم بكراهية عميقة واحتقار شديد ولا يعرض الكتاب لغير نساء الطبقة العليا من قريب أو بعيد ويجئ حديثه عن المرأة أصلاً فيما يتصل بموقفها محبوبة أو عاشقة ، وهو الموضوع الذى أدار عليه رسالته ، ويجئ غيره قليلاً وعرضاً ، للتأكيد أو التدليل أو التوضيح.

---

(1) انظر صفحة 68 من هذا الكتاب .